

دراسة طبيعة السبّ و اللعن عند الإمام علي (ع) في نهج البلاغة

تأريخ الاستلام: ١٤٣٩/١/١٦ تأريخ القبول: ١٤٣٩/٣/٢٠

اكبر توحيدلو*

الملخص

لقد أفرد موضوع «السبّ واللعن» مكانا له في أروقة تاريخ الإسلام، كما شكلت مادة دسمة دارت حولها صراعات كثيرة. يبدو في النظرة الأولى أنّ السبّ واللعن مرادفان، غير أنّ الإمعان في الجانب اللغوي للاتنين و وردهما في الآيات والأحاديث يظهر لنا ما يبعدهما عن البعض من فوارق. فعدم التمييز بين ما يحمله كل منهما من مفهوم قد أدى إلى ظهور شبهات مختلفة وتوجيه شتى أنواع التهم من ناحية مختلف أتباع الطوائف الإسلامية. هذا المقال ينوي النظر في ثنايا ما ورد في ذلك من الخطب والرسائل والحكم في نهج البلاغة في توجيه الشتائم إلى بعض الناس. ظهر لنا بعد دراسة النتائج أنّ السبّ واللعن مختلفان. ذهب علماء اللغة أنّ السبّ مرادف للشتيم. لكن اللعن يحمل معنا مختلفا يعني الابتعاد عن الرحمة. فعلى غرار علم اللغة هناك فارقا بين الاتنين في القرآن. وهذا يدل على جواز استخدامه. أما السنة النبوية تنطوي على لعن المشركين والمنافقين وأعداء الرسالة وأهل الكتاب ومن أظهر العداة للمسلمين. و الأسلوب المتبع في تأليف هذا المقال هو الأسلوب المكتبي ودراسة الخطب والرسائل والحكم في نهج البلاغة.

الكلمات الرئيسية: السب، اللعن، نهج البلاغة، الإمام علي (ع).

المقدمة

ربه يمثل الحلم، ولا أسخط الشيطان يمثل الصمت، ولا عوقب الأحق بمثل السكوت عنه» (أمالي، ٢٠٠٠: ١١٨). وجاء في رواية أخرى: «من سمع بفاحشة فأبداها كان كمن أتاها» (ابن أبي الحديد، ١٩٩٥: ٢٠/ ٢٧٣). عن الإمام موسى الكاظم (ع): «ما تساب اثنان إلا انحط الأعلى إلى مرتبة الأسفل» (الدلمي، ١٩٨٧: ٣٠٥).

كما روي أنه في يوم صفين سمع الإمام (ع) أن أصحابه يسبون أهل الشام فقال: «كِرِهْتُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا: لَعَانِينَ، شَتَائِينَ تَشْتِمُونَ، وَتَتَبَرَّؤُونَ، وَلَكِنْ لَوْ وَصَفْتُمْ مَسَائِرَ أَعْمَالِهِمْ فَقُلْتُمْ مِنْ سَبِّهِمْ كَذَا وَكَذَا، وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ كَذَا وَكَذَا، كَانَ أَصَوَّبَ فِي الْقَوْلِ وَأَبْلَغَ فِي الْعُذْرِ، وَ لَوْ قُلْتُمْ مَكَانَ لَعْنِكُمْ إِيَّاهُمْ، وَبَرَاءَتِكُمْ مِنْهُمْ: اللَّهُمَّ احْسُنْ دِمَاءَهُمْ، وَدِمَاءَنَا» (الرضي، ١٣٦٨: ٣٠٤).

كما قال الإمام (ع) قبل مواجهة العدو يوم الصفين: «ولا تهيجوا النساء بأذى، وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم، فأنهن ضعيفات القوى والأنفس والعقول» (المصدر نفسه: ٣٥٢).

وَرُوِيَ أَنَّهُ (ع) كَانَ جَالِساً فِي أَصْحَابِهِ فَمَرَّتْ بِهِمْ امْرَأَةٌ جَمِيلَةٌ فَرَمَقَهَا الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ فَقَالَ (ع): «إِنَّ أَبْصَارَ هَذِهِ الْفُحُولِ طَوَامِحُ وَإِنَّ ذَلِكَ سَبَبٌ هِبَابِهَا فَإِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى امْرَأَةٍ تُعْجِبُهُ فَلْيَلَيْسْ أَهْلَهُ فَإِنَّمَا هِيَ امْرَأَةٌ كَأَمْرَأَتِهِ. فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْخَوَارِجِ: قَاتَلَهُ اللَّهُ، كَافِرًا مَا أَفْقَهَهُ، فَوَتَّبَعَ الْقَوْمُ لِيَقْتُلُوهُ، فَقَالَ (ع): رُوَيْدًا إِنَّمَا هُوَ سَبٌّ بِسَبِّ، أَوْ عَفْوٌ عَنْ ذَنْبٍ» (المصدر نفسه: ٥٢٠).

و هناك عددٌ كبير من الروايات التي تؤكد على الابتعاد عن السب وتوجيه الإهانة والشتم، لكن لو نظرنا إلى خطب الإمام علي (ع) ورسائله وحكمه في نهج البلاغة، لرأينا أحاديث تدل على ضرورة سب بعض المشركين والمنافقين وحتى أصحاب الإمام (ع) وأهل الكوفة، هذا ومنع أهل البيت (ع) أتباعهم من التفوه بالسب والإهانة؛ بين هذا وذاك، إنَّ السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو هذا: لماذا تحدَّثوا أحيانا بعبارات تُعارض أوامرهم الصريحة؟

يسعى هذا البحث إلى الإجابة عن الأسئلة التالية وهي:

ما هو السبب في ورود عبارات في نهج البلاغة تتضمن نوعاً من الإهانة والشتم؟

هل تعد هذه الحالات من مصاديق السب والشتم، أم أنها مجرد

لعن؟

سيلقي هذا البحث الضوء على بعض أحاديث الإمام علي (ع) كما ورد في خطبه ورسائله وحكمه، ويكشف نوع الخطاب الكامن فيها؛ هل هي تصنّف ضمن الإهانة أم السب، أم أنها أحاديث قيلت في إطار العادات والتقاليد السائدة آنذاك، وهل يمكننا عدها معارضة للقرآن أم لا.

سوابق البحث

لم يدون في هذا المجال كتاب مستقل يعالج الأمر، غير أن هناك أبحاثاً يمكن أن نعدّها مقدمة لهذا البحث، مثل كتاب

يعد السب واللعن والاهانة، من الأخلاق الذميمة المنتشرة في الكثير من المجتمعات، وشهداها العرب في شبه الجزيرة في العصر الجاهلي وفي صدر الإسلام. إنَّ الإهانة تشكل أرضية ملائمة لانتشار الأخلاق الذميمة في المجتمعات، وما يتبعها من الآثار والتداعيات، ومن الواضح أنَّ الإمام بتداعيات سلوك المرء يمكن أن تحول دون ظهور الكثير من الانحرافات، وأن يترك تأثيره الإيجابي في ذلك الأمر.

كان السبُّ عند بعض الطبقات الاجتماعية، ظاهرة اعتيادية، بل كان معياراً إيجابياً بينهم، فإذا أرادوا أن يجذبوا أطراف الحديث فيما بينهم، كان يرون الإهانات والتنايز بالألقاب الذميمة أمراً ممتعاً، وبلغ الأمر بهم درجة أنهم كانوا يرون ذكر المثالب مفضرة لهم.

إطار الموضوع

يعني السب واللعن استخدام المفردات المذمومة والبذيئة والمؤذية، ويراد بالسب الحديث عن القضايا المذمومة والمستهجنة باستخدام العبارات الصريحة، وإيراد المفردات السيئة والتي لا تليق بالمكانة الإنسانية، ويحمل السب مفهوماً متسع النطاق ويتضمن كل أنواع التهم السيئة.

ينهى القرآن عن الإهانة نهياً شديداً حتى لو كان الآخر كافراً. يستنبط من بعض الروايات أنَّ عدداً من المؤمنين كانوا يسبون أحيانا أصنام المشركين، وذلك كردة فعل منهم على عمل المشركين، فنهاهم القرآن عن ذلك بصريح العبارة وأوجب عليهم احترام أسس الأدب حتى في مواجهة أكثر الأديان خرافة.

يقول الله تعالى في الذكر الحكيم: «وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ» (الأنعام/ ١٠٨). ينقل الشيخ الطوسي عن الحسن البصري في سبب نزول الآية: كان المؤمنون يسبون ما يعبد المشركون من دون الله، فكان المشركون يسبون ما يعبد المؤمنون، فنهى الله المؤمنين عن سب آلهتهم لكيلا يسب الكفار إله المؤمنين، فكان المؤمنين قد أشركوا من حيث لا يعلمون (الطبرسي، ١٤٠٦: ٤/ ٤٢١).

تأمر الروايات المسلمين بتترك الإهانة، والاعتماد على منهاج المنطق، وعدم اللجوء إلى السب والاهانة في مواجهة عقائد المعارضين، كما روي عن النبي (ص): «إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره» (الشيخ المفيد، ٢٠٠٠: ١١٨). وورد في حديث آخر: «لا تسبوا الرياح؛ فإنها مأمورة، ولا تسبوا الجبال ولا الساعات، ولا الأيام ولا الليالي فتأتموا وترجع عليكم» (قمي، (الرضي، ٢٠٠٦: ٢/ ٥٧٧). قال رسول الله (ص): «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر وحرمة ماله كحرمة دمه» (قمي، ١٩٩٣: ٤/ ٣٧٧).

سمع أمير المؤمنين (ع) رجلاً يشتم قبره وقد رام أن يرد عليه فناده أمير المؤمنين (ع): «مهلاً يا قبر دع شاتمك مهاناً ترضي الرحمن وتسخط الشيطان، وتعاقب عدوك فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما أرضى المؤمن

إنَّ السب واللعن يختلفان لغوياً كما يختلفان من ناحية المعنى، و يظهر هذا الاختلاف في القرآن الكريم واضحاً؛ فمفردة اللعن وردت في القرآن ٣٧ مرة ونسبت إلى الله تعالى، ونقلت على لسان الناس مرة واحدة، فهذا العدد من الورد يدل على جواز التفوه بها، غير أنَّ السب ورد في القرآن مرة واحدة، ونهي عن الإهانة، وهذا يدل على عدم جواز السب والشتيم.

أما في السنة النبوية نرى العشرات من الأحاديث، والتي تشمل على لعن المشركين، والمنافقين، وأعداء الرسالة، وأهل الكتاب، ومن أبدو العداة للمسلمين (بسيوني زغلول، ١٤١٠: ٦ / ٥٩٥). كما ورد في التواريخ «جَهَّزُوا جيش أسامة، لعن الله من تخلف عنه» (الطبري، ١٣٨٧: ٣ / ٢٢٦؛ شهرستاني، ١٤١٠: ١ / ١٢٩).

مصاديق اللعن والملعونين في القرآن والروايات

يظهر لنا عند دراسة آيات القرآن الكريم أنَّ الملعونين أربع فئات: إبليس، و هو أول الملعونين، واستحق اللعن الإلهي كما ورد في الذكر الحكيم: (وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ) (ص / ٧٨). والكفار، كما ورد في القرآن الكريم: (إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا) (الأحزاب / ٦٤). أهل الكتاب: (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ) (مائدة / ٨٧). والمسلمون، وهم على عدة أقسام: الكذابين (النور / ٧) والظالمين (هود / ١٨) ومن آذى النبي (ص) (الأحزاب / ٥٧) ومن اتهم البريئات بالزنا (النور / ٢٣) والمنافقين (التوبة / ٦٨) والقلة (النساء / ٩٣) والفاستدين (محمد / ٢٢) وقاطعي الأرحام. (محمد / ٢٢).

دراسة نص الخطب والرسائل والحكم الواردة في نهج البلاغة

بعد أن خضنا في التعريفات وألقينا الضوء على الخطوط العريضة للنص، واتضح لنا ما يفرق بين السب واللعن، ننتقل إلى صلب الموضوع وهو دراسة أحاديث الإمام علي (ع) في نهج البلاغة حول موضوع السب واللعن. لقد وردت عبارات في ٤٢ خطبة ورسالة وحكمة في نهج البلاغة، تدلُّ على أنَّ الإمام لعن البعض وشتيمهم.

١. مخاطبة الخلفاء

إنها الخطبة الشهيرة بالشقشقية، إذ وجَّه نقده للخليفة الثاني بالقول: «يَغْلُظُ كَلْمَهَا وَيَحْشُنُ مَسْئَهَا وَيَكْثُرُ الْعِتَارُ فِيهَا وَالْإِعْتِدَارُ مِنْهَا فَصَاحِجُهَا كَرَائِبِ الصَّعْبَةِ إِنْ أَشْنَقَ لَهَا حَرَمَ وَإِنْ أَسْلَسَ لَهَا تَقَحَّمَ». ثم يقول عن عثمان: «إِلَى أَنْ قَامَ تَالِثُ الْقَوْمِ نَافِجاً حِضْنِيَّو بَيْنَ نَثِيلِهِ وَمُغْتَلِّفِهِ» (الرضي، ١٣٦٨: ٣٠).

كما هو واضح من العبارات فإنَّ الإمام عبَّر عن انتقاده لهما في لباس التشبيه وبمختلف الأمثلة، وكان يرمي من هذا إلقاء الضوء على معنويات وأخلاق الخلفاء الثلاثة، فحقق ما يصبو إليه مستعينا بمختلف الأساليب التعبيرية.

١. «مفهوم اللعن والسب في القرآن الكريم، المجمع العلمي لأهل البيت (ع)» فالكتاب من تأليف المجمع العلمي لأهل البيت (ع) وباللغة العربية ويتطرق إلى مفهوم السب واللعن، ومكوّن من عدة فصول، ألقى الكاتب الضوء بداية على مفهوم السب واللعن، ومن ثم تطرق إلى سمات اللعن والملعون، ثم ركّز على دراسة اللعن مفهوماً وذلك في جانب المعتقدات. كما أولى اهتماماً بآراء الخلفاء حول السب واللعن، وكذلك آراء أهل البيت (ع) في المجال ذاته. هذا الكتاب متوفر على موقع المجمع العلمي لأهل البيت (ع).

٢. مقدمة شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد. إنَّ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد من تأليف أبي حامد عبد الحميد بن هبة الله بن أبي الحديد المعتزلي ت ٦٥٦ للهجرة، هو أكثر الشروح تفصيلاً على نهج البلاغة، ويحظى بتأييد المسلمين كافة، هذا الكتاب مكوّن من ٢٠ جزءاً، ويسير على ترتيب نهج البلاغة، إذ يبدأ بالخطب ثم بالرسائل وأخيراً بالكلمات القصيرة.

٣. ترجمة نهج البلاغة الفارسية لدشتي، يُعدُّ محمد دشتي (ت ٢٠٠١) من كبار العلماء المعاصرين، ذاع صيته بسبب الكتب التي نشرها في مجال نهج البلاغة وخاصة ترجمه نهج البلاغة، ومعجم نهج البلاغة، ومقدمات كتبها في مستهل كل خطبة ورسالة، وإلقاء نظرة عابرة على سيرة الشخصيات الواردة في الخطبة، وذكر المناسبة التي قيلت فيها تلك الخطب، واتخاذ الإمام (ع) لتلك المواقف، ويمكن إدراجها في إطار سوابق هذا البحث.

السب و مفهومه المفهوم اللغوي

السب والاهانة على أنواع، ويحمل كل منهما في الأدب العربي مفهوماً خاصاً، وتفيدنا المعاجم أنَّ هذه المفردات: الهجو، والهجر، والسب، والشتيم، والاهانة، والتفحش، والعار، والبذاءة، والسلطة، وما شابهها، تشكل أنواعاً للسب والاهانة. فالإهانة هي الإساءة نحو الآخر أكثر مما هو لازم (دهخدا، ١٩٤٦: ٣٥/١٢). بعبارة أخرى إذا ما تجاوزت السيئات حدّها، يلجأ الشخص إلى السب. أما التفحش فيعني الهجاء، والسب يعني القول السيئ أو الإهانة.

قال الراغب: السب هو الشتم الوجيع (الأصفيهاني، ١٩٩٧: ٢٢٥). وذهب ابن أثير أنَّ الإهانة تعني الشتم لا غير (ابن أثير، ١٩٨٨: ٤ / ٣٣٠). كما ذهب كل من الجوهرى (الجوهري، ١٤١٦: ٤ / ٢١) والطريحي (الطريحي، ١٩٩٦: ٦ / ٣٠٩) وابن منظور (ابن منظور، ١٩٩٦: ١ / ٤٥٥) هذا المذهب عند الحديث عن مفهومها لغوياً. يبدو أنَّ علماء اللغة اعتبروها مرادفة للسب والشتيم، غير أنَّ اللعن يحمل مفهوماً مختلفاً، ويعني البعد عن الرحمة (المصدر نفسه) فلو راجت بين الناس تعني طلب الطرد وتحمل مفهوماً مختلفاً عن السب والشتيم.

٢. مخاطبة أهل البصرة

يذم الإمام (ع) في الخطبة الـ ١٣ أهل البصرة بعد وقعة الجمل، ويلومهم على جهلهم: «كُنْتُمْ جُنْدَ الْمَرَاةِ، وَأَتْبَاعَ الْبَيْهَمَةِ، رَغَا فَأَجَبْتُمْ، وَعُقِرَ فَهَرَبْتُمْ. أَخْلَاقُكُمْ دِقَاقٌ، وَعَهْدُكُمْ شِقَاقٌ، وَدِينُكُمْ نِفَاقٌ، وَمَاؤُكُمْ زُعَاقٌ، الْمُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مُرْتَهَنٌ بِدَنْبِهِ، وَالشَّائِخِصُّ عَنْكُمْ مُتْدَارِكٌ بِرَحْمَةٍ مِنْ رَبِّي» (الرضي، ١٣٦٨: ٣٦).

ألقى الإمام (ع) الخطبة الـ ١٤ وذم فيها أهل البصرة قبل وقعة الجمل ولأم جهلهم وسفاهتهم: «خَفَّتْ عُقُولُكُمْ وَسَفِهَتْ حُلُومُكُمْ فَأَنْتُمْ غَرَضٌ لِنَابِلٍ وَأَكْلَةٌ لِكَيْلٍ وَفَرِيَسَةٌ لِنَابِلٍ».

وجاءت الخطبة الـ ١٥٦ قبل تحقيق النصر في وقعة الجمل عام ٣٦ والخطاب موجه لأهل البصرة: «وَأَمَّا فَلَانَةٌ فَأَذْرَكَهَا رَأْيَ النَّسَاءِ وَضِعْنَ غَلَا فِي صَدْرِهَا كَمِرْجَلِ الْفَتِينِ» (المصدر نفسه: ٢٠٤).

ألقيت الخطب الثلاثة قبل يوم الجمل، إذ وقف أهل البصرة بوجه إمام زمانهم دعماً لفئة ضالة، فانتصر الإمام (ع) عليهم بعد حرب دامية، ووجه لهم انتقاده في الخطب الثلاثة.

٣. لعن أشعث بن قيس

الخطاب في الخطبة الـ ١٩ موجه لأشعث بن قيس، وذلك بعد أن احتج الأشعث على الإمام، ورد الإمام (ع) عليه قائلاً: «عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ وَلَعْنَةُ اللَّاعِبِينَ! حَائِكُ ابْنِ حَائِكِ! مُنَافِقُ ابْنِ كَافِرٍ! وَاللَّهِ لَقَدْ أَسْرَكَ الْكُفْرُ مَرَّةً وَالْإِسْلَامُ أُخْرَى!» (المصدر نفسه: ٤٢).

كان الأشعث بن قيس من المنافقين والخوارج، وكان قد تولّى ولاية أذربيجان في عهد عثمان بن عفان، وعندما تولّى الإمام (ع) الخلافة، أبقاه والياً على أذربيجان وأرمينية. لعب الأشعث في موقعة صفين دوراً بارزاً سواء في الحرب أو في مفاوضات التحكيم، وكان من الذين أرغموا الإمام على قبول التحكيم، واختيار أبي موسى الأشعري حكماً لأهالي العراق (الدينوري، ١٩٩٩: ١٧١). من هنا تعتبره الروايات الشيعية «خائناً مخضرمًا». قال الأشعث للإمام: لولم تقبل بالتحكيم، فلا يحارب إلى جانبك شخص واحد من قبيلتي (الطبري، ١٣٨٧: ٤ / ٥٦٩-٥٧٢).

٤. مخاطبة أهل البصرة

يخاطب الإمام (ع) أهل الكوفة في الخطب الـ ٢٧ و ٢٩ و ٣٤ و ٣٩ و ٦٩ و ٧١ والسب.

ألقى الإمام الخطبة الـ ٢٧ عام ٣٨هـ. ق عندما وصله خبر هجوم جيش معاوية على مدينة الأنبار، وتساهل أهل الكوفة وتراخيهم، إذ قال: «يَا أَشْجَبَةَ الرَّجَالِ وَالرَّجَالِ! حُلُومُ الْأَطْفَالِ، وَعُقُولُ رِيَّاتِ الْجِجَالِ، لَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَرِكُمْ وَلَمْ أَعْرِفْكُمْ مَعْرِفَةَ -وَاللَّهِ- حَيْرَتِ نَدْمًا، وَأَعَقَبْتُ سَدْمًا فَأَتَلَكُمُ اللَّهُ! لَقَدْ مَلَأْتُمْ قَلْبِي قَيْحًا، وَسَخَنْتُمْ

صَدْرِي غَيْظًا، وَجَرَعْتُمُونِي نُعْبَ التَّهْمَامِ أَنْفَاسًا، وَأَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِالْعَصِيَّانِ وَالْخَذْلَانَ» (الرضي، ١٣٦٨: ٥٢).

جاءت الخطبة الـ ٢٩ بعدما شن ضحاک بن قيس عام ٣٧ هجوماً على قافلة الحجاج وسلبهم أموالهم: «أَيُّهَا النَّاسُ، الْمُجْتَمِعَةُ أَيْدَانُهُمْ، الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ، كَلَامُهُمْ يُرْوِي الصُّمَّ الصَّلَابِ، وَفِعْلُهُمْ يُطْبَعُ فِيكُمْ الْأَعْدَاءُ!، أَعَالِيلُ بِأَصَالِيلِ دِفَاعِ ذِي الدِّينِ الْمَطُولِ، لَا يَمْنَعُ الصُّبْحُ الدَّلِيلُ!» (المصدر نفسه: ٥٤).

كما ألقى الإمام الخطبة الـ ٣٤ بعد إنزال الهزيمة بالخوارج عام ٣٧، بهدف استنفار الناس إلى أهل الشام في نخيلة الكوفة: «أَفِّ لَكُمْ!... فَأَنْتُمْ لَا تَعْقِلُونَ... مَيَا أَنْتُمْ إِلَّا كَابِلٌ صَدَلٌ رُعَاتِيهَا...» (المصدر نفسه: ٥٨).

أما الخطبة الـ ٣٩ خطبها عند علمه بغزوة النعمان بن بشير صاحب معاوية لعين التمر؛ تلك الأراضي المعمورة الواقعة غربي الفرات وقصور أهل الكوفة عام ٣٩ للهجرة: «لَا أَرِيَا لَكُمْ! مَيَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ رَبِّكُمْ؟ أَمَا دِينَ يَجْمَعُكُمْ، وَلَا حِمِيَّةَ تُحْمِشُكُمْ» (المصدر نفسه: ٦٤).

أما الخطبة الـ ٦٩ خطبها عام ٣٩ للهجرة عندما علم بغزوة النعمان بن بشير صاحب معاوية لعين التمر وذم فيها أهل الكوفة: «أَغْلَقَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بَابَهُ، وَأَنْجَحَرَ أَنْجِحَارَ الصَّيْبَةِ فِي جُحْرِهَا، وَالصُّبْحُ فِي وَجَارِهَا، الدَّلِيلُ وَاللَّهُ مَنْ نَصَرْتُمُوهُ» (المصدر نفسه: ٨٢).

خطب الإمام خطبة رقم ٧١ عام ٣٧ للهجرة بعدما انصاعوا لخدع عمرو بن العاص ومعاوية، فيخاطبهم محذراً: «وَلَقَدْ بَلَّغْتِي أَنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَيَّ يَكْتُمُونَ قَاتِلَكُمْ اللَّهُ تَعَالَى فَعَلَى مَنِ أَكْمَدْتُ» (المصدر نفسه: ٨٤).

أما الخطبة رقم ١٠٨ يتحدث فيها عن الأحداث الصعبة المستقبلية: «مَيَا لِي أَرَاكُمْ أَشْبَاحًا بِلَا أَرْوَاهُ وَأَرْوَاهًا بِلَا أَشْبَاحَ وَتُسْبِيحًا بِلَا صِيَالِحَ وَتُجَارًا بِلَا أَرْيَاحَ وَأَيْقَظًا نُومًا وَشُهُودًا غُيْبًا وَنَاطِرَةً عَمِيَاءَ وَسَيَامِعَةً صِيَمَاءَ وَنَاطِقَةً بِكَمِيَاءَ رَايَةَ صَدَالٍ قَدَمَاتٍ عَلَى قَطْبِهَا وَتَفَرَّقَتْ بِشُعْبَيْهَا تَكْبِيلُكُمْ بِصِيَاعِهَا وَتَحْطِطُكُمْ بِبَاعِهَا قَائِدُهَا خَارِجٌ مِنَ الْمِلَّةِ قَائِمٌ عَلَى الصَّلَاةِ» (المصدر نفسه: ١٤٠).

أما في الخطبة الـ ١٢١؛ بعد أن قام إليه رجل من أصحابه فقال: نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها فلم ندر أي الأمرين أرشد؛ صفق (ع) ثم قال: «أُرِيدُ أَنْ أَدَاوِي بِكُمْ وَأَنْتُمْ دَائِي كِنَافِشِ الشُّوَكَةِ بِالشُّوَكَةِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ صَلْعَهَا مَعَهَا اللَّهُمَّ قَدْ مَلَأْتَ أَطْيَاءَ هَذَا الدَّاءِ الدَّوِيِّ وَكَلَّتِ النَّزْعَةُ بِأَشْطَانِ الرَّكِيِّ» (المصدر نفسه: ١٦٢).

خطب الإمام (ع) خطبة رقم ١٣١ على المنبر وتعرفت بالخطبة المنبرية: «أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُخْتَلِفَةُ وَالْقُلُوبُ الْمُتَشَتِّتَةُ الشَّاهِدَةُ أَيْدَانُهُمْ وَالْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ أَطَارِكُمْ عَلَى الْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَنْتَظِرُونَ عَنْهُ نُفُورَ الْمِعْرَى مِنْ وَعْوَةِ الْأَسَدِ» (المصدر نفسه: ١٧٤).

وقال (ع) في شأن طلحة والزيبر وفي البيعة له عام ٣٦ قُبيل الحرب: «وَأَنَّهَا لِلْفَيْئَةِ الْبَاغِيَةِ فِيهَا الْحَمَاءُ وَالْحُمَّةُ وَالشَّيْئَةُ الْمُغْدِفَةُ» (المصدر نفسه: ١٨٠).

أسلم طلحة بن عبيد الله على يد أبي بكر. وكان من المهاجرين (ابن هشام، لاتا: ١/ ٢٥١- ٢٥٢؛ المسعودي، ١٤٠٩: ٢/ ٢٧٧؛ ابن الأثير الجزري، ١٤٠٩: ٢/ ٤٦٨). كان طلحة من ضمن الذين طُوقوا بيت عثمان عام ٣٥. وأُتِهم بقتل الخليفة الثالث (البلاذري، ٢٠٠٠: ٥/ ٥٦١). ويقال أن طلحة يُعدُّ من العناصر الرئيسية المحرَّضة على قتل الخليفة الثالث (اليقوي، لاتا: ٢/ ١٧٥). ثار على الإمام علي (ع) في وقعة الجمل (ابن خياط، ١٤١٥: ١٠٨). واعتبره الإمام (ع) أنه أمكر الناس (ابن أعثم الكوفي، ١٤١١: ٢/ ٤٦٣-٤٦٤). قتل طلحة وترك بعد وفاته ثروة هائلة، وفي يد خازنه ألف ألف درهم ومائتا ألف درهم، وقُوِّمت أصوله وعقاره بثلاثين ألف ألف درهم (ابن سعد، ١٤١٠: ٣/ ١٦٦-١٦٧).

لقد زار طلحة والزيبر الإمام، فقالا: إنه قد لنا بعد رسول الله جفوة فأشركنا في أمرك، فقال: «أنتما شريكاي في القوة والاستقامة وعوناي على العجز والأود»، فقالا: «إنا نريد العمرة، فأذن لنا في الخروج»، فقال علي لبعض أصحابه: «والله ما أُرادا العمرة، ولكنهما أُرادا الغدرة» (اليقوي، لاتا: ٢/ ١٨٠).

٦. مخاطبة مصقلة بن هبيرة

في عام ٣٧ ابتاع مصقلة سبي بني ناجية من عامل أمير المؤمنين (ع) وأعتقهم، فلما طالبه المال استنكف وهرب إلى الشام، فقال له الإمام (ع): «قَبِّحَ اللَّهُ مَصْقَلَةَ فَعَلَ فِعْلَ السَّادَاتِ وَفَرَّ فِرَارَ الْعَبِيدِ» (الرضي، ١٣٦٨: ٦٦).

كان مصقلة بن هبيرة عامل الإمام (ع) على أحد مدن فارس وكان قد بذل أموال بيت المال إلى أقاربه في فترة حكمه، بلغ الإمام هذا الأمر، فنهاه عن فعله، وطالبه الأموال، وصل مصقلة إلى البصرة واقترح دفع أقل من نصف أموال بيت المال، فرفض الإمام، فانضم إلى معاوية (الطبري، ١٣٨٧: ٥/ ١٢٩).

٧. مخاطبة معاوية

قال الإمام (ع) في آخر أيام حياته الشريفة، في ذم أهل الكوفة وتحذيرهم: «أَمَّا إِنَّهُ سَيَطْهَرُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي رَجُلٌ رَحَبُ الْبُلْعُومِ مُنْدَحِقُ الْبَطْنِ يَأْكُلُ مَا يَجِدُ وَيَطْلُبُ مَا لَا يَجِدُ فَاقْتُلُوهُ وَلَنْ تَقْتُلُوهُ» (الرضي، ١٣٦٨: ٧٦).

و بعد حرب صفين قال في مدينة الكوفة عام ٣٧: «وَاللَّهِ مَا مُعَاوِيَةَ بِأَدْهَى مِنِّي وَلَكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ» (المصدر نفسه: ٣٠٠).

و كتب إلى معاوية في أرض الصفين عام ٣٦ قبل بدايته: «مِنْ دُنْيَا قَدْ تَبَهَّجَتْ بِرَبِّيَّتِهَا وَخَدَعَتْ بِلَدِّيَّتِهَا دَعَتَكَ فَاجْتَنِبْهَا وَقَادَتَكَ فَاتَّبِعْتَهَا وَأَمْرَتَكَ فَاطْعَتَهَا وَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَقْفِكَ وَاقِفْ عَلَى مَا لَا يُنْجِيكَ مِنْهُ

و ذهب الشارحون لخطبة ١٧٥ أن الإمام (ع) كان مُسنداً إلى عمود مسجد المدينة وقال: «أَيُّهَا النَّاسُ غَيْرُ الْمَغْفُولِ عَنْهُمْ وَالتَّارِكُونَ الْمَأْخُودُ مِنْهُمْ» (المصدر نفسه: ٢٣٤).

و خطب الإمام (ع) خطبة رقم ١٨٠ عام ٣٧ بهدف تقديم العون لمحمد بن أبي بكر في مصر وفي ذم العاصين من أصحابه: «لَا أَبَا لِعَيْرِكُمْ مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ وَالْجِهَادِ عَلَى حَقِّكُمْ الْمَوْتِ أَوْ الدَّلِّ لَكُمْ أَمَا دِينَ يَجْمَعُكُمْ وَلَا حَوِيَّةَ تَشْحَدُكُمْ أَوْ لَيْسَ عَجَباً أَنْ مُعَاوِيَةَ يَدْعُو الْجُفَاةَ الطَّغَامَ... وَمُؤَدِّبُهُمُ ابْنُ النَّابِغَةِ» (المصدر نفسه: ٢٤٤).

و ألقى خطبة رقم ٢٣٨ في شأن الحكمين وذم أهل الشام: «جُفَاةَ طَغَامٍ وَعَبِيدَ أَقْرَامٍ جُمِعُوا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ وَتَلَقَّتْهُمُ مِنْ كُلِّ شَوْبٍ» (المصدر نفسه: ٢٣٦).

مدح الإمام علي (ع) أهل الكوفة قبل وقعة الجمل وبعدها عندما انتصر على العدو؛ لهذا كان السواد الأعظم من أهل الكوفة داعمين للإمام قلباً وقالبا؛ كما لا يغيب عن بالنا بأن أناساً من أهالي الكوفة فضّل عدم الخروج إلى الحرب، فترك الإمام وحيدا يخوضها؛ وهم قاتلوا إلى جانبه أهل الجمل والخوارج ويوم الصفين، لا ننسى أنه في وقعة الجمل حضر ٤٠٠ مقاتلاً من المدينة والمدن الأخرى إلى البصرة وقدّموا العون للإمام (ع)، لكن كان أهل الكوفة يشكّلون الأغلبية في الحروب الأخرى التي خاضها الإمام (البلاذري، ٢٠٠٠: ٢/ ١٥٨؛ الطبري، ١٣٨٧: ٤/ ٤٧٧-٤٧٩؛ المسعودي، ١٤٠٩: ٣/ ١٠٣-١٠٥). لكن السؤال المطروح هنا يدور حول ذم الإمام (ع) إياهم و الرسالة التي يحملها الذم في خطبه.

لقد اختار الإمام (ع) تلك الكلمات والخطب كأخر حلٍّ لتلك الفئة، فالذين لا تحرك الأحداث حميتهم، ويتقبلون برحاب الصدر شتى أنواع الشتائم والإساءات، أراد الإمام باتخاذ هذا الأسلوب في الكلام إثارتهم لمواجهة العدو، هذا إذا بقي في ذاتهم أقل المشاعر التي تحرك ساكنها.

إنّ استخدام هذا السبيل يأتي بثماره في مواجهة بعض الفئات، كما يؤكد علم النفس على هذا الأمر. أراد الإمام أن يقوم بعمل يثير فيهم الحمية، من هنا نرى أنّ استخدام هذا الأسلوب في التعبير يأتي متناسقا مع قضية البلاغة في الكلام.

هذا ويستخدم الإمام هذا الأسلوب بعدما استخدم أساليب أخرى ومنها شحذ الهمم والحديث عن القيم المعنوية والمادية مثل الجهاد في سبيل الله. فهذه الأحاديث قد جرت على لسان من يئس من أتباعه ولا يرى سبيلا سوى التفوه بتلك المفردات العنيفة، بغية استيقاظهم من سباتهم.

٥. مخاطبة طلحة والزيبر

أنفذ عبد الله بن عباس إلى الزبير يستفتيه إلى طاعته قبل حرب الجمل فقال: «لَا تَلْقَيْنَ طَلْحَةَ فَإِنَّكَ إِنْ تَلَقْتَهُ تَجِدُهُ كَالْقَوْرِ عَاقِصاً قَرْنَهُ يَرْكَبُ الصَّعْبَ» (الرضي، ١٣٦٨: ٥٤).

المسلمين، مع أنه بايع الإمام، لكنه صار من الناكثين، وتوجه إلى البصرة في وقعة الجمل، فشهد الحرب، لكن قبض عليه، توجه مروان إلى معاوية، وشهد صفين مدافعا عن معاوية، كما ولاه معاوية ولاية البحرين لفترة من الزمن.

٩. خطابه إلى النساء

خطب (ع) بعد فراغه من حرب الجمل في مسجد البصرة عام ٣٦ و قال: «مَعَاشِرَ النَّاسِ إِنَّ النَّسَاءَ نَوَاقِصُ الْإِيمَانِ نَوَاقِصُ الْحُطُوطِ نَوَاقِصُ الْعُقُولِ فَأَمَّا نَقْصَانُ إِيْمَانِهِنَّ فَقُعُودُهُنَّ عَنِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ فِي أَيَّامِ حَيْضِهِنَّ وَأَمَّا نَقْصَانُ عُقُولِهِنَّ فَشَهَادَةُ امْرَأَتَيْنِ كَشَهَادَةِ الرَّجُلِ الْوَاحِدِ وَأَمَّا نَقْصَانُ حُطُوطِهِنَّ فَمَوَارِيثُهُنَّ عَلَى الْأَنْصَافِ مِنْ مَوَارِيثِ الرِّجَالِ فَاتَّقُوا شِرَارَ النَّسَاءِ وَكُونُوا مِنْ خِيَارِهِنَّ عَلَى حَذَرٍ وَلَا تُطِيعُوهُنَّ فِي الْمَعْرُوفِ حَتَّى لَا يَطْمَعَنَّ فِي الْمُنْكَرِ» (الرضي، ١٣٦٨: ٩٠).

وقد أوصى (ع) عسكره قبل لقاء العدو بصفين بالاهتمام بالنساء: «فَأَنْهَيْنَّ ضَعِيفَاتِ الْقُوَى وَالْأَنْفُسِ وَالْعُقُولِ».

ومن وصية له (ع) للحسن (ع) كتبها إليه عند انصرافه من صفين عام ٣٨: «وَإِيَّاكَ وَمَشُورَةَ النَّسَاءِ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَى أَفْنٍ وَعَزْمُهُنَّ إِلَى وَهْنٍ وَكَفْظُهُنَّ إِلَى أَيْسَارٍ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ بِحِجَابِكِ إِثَاهُنَّ فَإِنَّ شِدَّةَ الْحِجَابِ أَنْبَى عَلَيْهِنَّ وَأَيْسَرَ خُرُوجُهُنَّ بِأَشَدِّ مِنْ إِدْخَالِكَ مَنْ لَا يُوثِقُ بِهِ عَلَنَهُنَّ وَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَلَّا يَعْرِفْنَ غَيْرَكَ فَافْعَلْ وَلَا تَمْلِكِ الْمَرْأَةُ مِنْ أَمْرِهَا مَا جَوَزَ نَفْسُهَا فَإِنَّ الْمَرْأَةَ رِيحَانَةٌ وَلَيْسَتْ بِقَهْرْمَانَةٍ وَلَا تَعُدُّ بِكَرَامَتِهَا نَفْسُهَا وَلَا تُطْمَعُهَا فِي أَنْ تَشْفَعَ لغيرِهَا» (المصدر نفسه: ٨٦).

وقال الإمام (ع) على سبيل ضرب المثل: «الْمَرْأَةُ شَرُّ كُلِّهَا وَشَرُّ مَا فِيهَا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْهَا» (المصدر نفسه: ٤٨٢).

المرأة والرجل متساويان في الإسلام في الجوهر الإنسانية، لكن العقل عقلا: «العقل المعيار» وهو الذي يقود الإنسان إلى الكمال والقرب الإلهي، ف«العقل ما عبد به الرحمان» (الكليني الرازي، ١٩٩٦: ٥٠ / ١). هذا هو العقل للأهواء النفسية. و«العقل المحاسب» وهو تلك الآلية التي تُستخدَم في ترتيب أوراق المعاش. يتقدم الرجل على المرأة في هذا المجال عادة، لكنه ليس معيارا للكمال بل يمثل نوعا من تقسيم العمل الطبيعي، وفي المقابل فإن المرأة تتمتع بالجانب العاطفي الكبير مقارنة بالرجل.

يفيدنا علم النفس أن للرجال والنساء ذكاءً يختلف عن البعض، فلرجال ذكاء يتسم برؤية متمركزة، وللنساء ذكاء حواس ورؤية مفتوحة. هذا الأمر يترك تأثيره على حكم الرجل والمرأة. فلا تخشى عن منظار الرجال شاردة ولا واردة، بينما تفكر المرأة بانزال أشد العقوبات، ذلك إن شدتها في الغضب تساوي سرعتها في التعبير عن الحب (مجذ، ٢٠٠٢: ١٠١ و٩٧).

أما صفة نواقص الإيمان فإنها إشارة إلى ترك الصلاة والصوم عند العادة الشهرية، فإنها لا تؤدّي الفرائض في هذه الأيام انصياعاً لأوامر الله. وعبارة نواقص الحظوظ تشير إلى نصيب المرأة المالي في بعض

مَجْرَى فَاغْتَمَسَ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ وَخَذَ أَهْبَةَ الْجَسَابِ وَشَمَّرَ لِمَا قَدْ نَزَلَ بِكَ وَلَا تَمَكَّنِ الْعَوَاةَ مِنْ سَمْعِكَ وَلَا تَفْعَلْ أَعْلَمَكَ مَا أَغْفَلْتَ مِنْ نَفْسِكَ فَإِنَّكَ مُتْرَفٌ قَدْ أَخَذَ الشَّيْطَانُ مِنْكَ مَاخِذَهُ وَبَلَغَ فِيكَ أَمَلَهُ وَجَرَى مِنْكَ مَجْرَى الرُّوحِ وَالِدَّمِّ وَمَتَى كُنْتُمْ يَا مُعَاوِيَةُ سَاسَةَ الرَّيْجِيَّةِ وَوَلَاةَ أَمْرِ الْأُمَّةِ بِغَيْرِ قَدَمٍ سَابِقِ وَلَا شَرْفٍ بَاسِقِ وَنَعُودُ بِاللَّهِ مِنْ لُزُومِ سَوَابِقِ الشَّقَاءِ وَأُحْذَرُكَ أَنْ تَكُونَ مُتَمَادِيًا فِي غِرَّةِ الْأُمِّيَّةِ مُخْتَلِفِ الْعَلَانِيَةِ وَالسَّرِيرَةِ» (المصدر نفسه: ٣٤٨).

وكتب أيضاً (ع) إلى معاوية جواباً عن كتاب منه إليه في صحراء صفين عام ٣٧: «وَلَا الْمُهَاجِرُ كَالطَّلِيقِ وَلَا الصَّرِيحُ كَالصَّبِيقِ وَلَا الْمُحِقُّ كَالْمُجِيلِ وَلَا الْمُؤْمِنُ كَالْمُدْغِلِ» (المصدر نفسه: ٣٥٤).

وكتب أيضاً (ع) إلى معاوية جواباً له بعد موقعة الجمل عام ٣٦: «لِلطَّلَقَاءِ وَأَبْنَاءِ الطَّلَقَاءِ» (الرضي، ١٣٦٨: ٣٦٤). وكتب أيضاً (ع) له: «وَأَرَدَيْتُ جِيلاً مِنَ النَّاسِ كَثِيراً خَدَعْتَهُمْ بِعَيْكَ وَالْقَمِيَّتَهُمْ فِي مَوْجِ بَحْرِكَ تَغَشَاهُمْ الظُّلُمَاتُ وَتَتَلَطَّمُ بِهِمُ الشُّبُهَاتُ... فَاتَّقِ اللَّهَ يَا مُعَاوِيَةُ فِي نَفْسِكَ وَجَادِبِ الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ فَإِنَّ الدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ عَنْكَ وَالْآخِرَةُ قَرِيْبَةٌ مِنْكَ وَالسَّلَامُ» (المصدر نفسه: ٣٨٢).

وأرسل (ع) إلى معاوية عام ٣٦ للهجرة قبل وقعة الصفين: «فَسُبْحَانَ اللَّهِ مَا أَشَدُّ لُزُومَكَ لِلْأَهْوَاءِ الْمُتَبَدِّعَةِ وَالْحَيْرَةِ الْمُتَّبَعَةِ مَعَ تَضْيِيعِ الْحَقَائِقِ وَأَطْرَاحِ الْوَثَائِقِ الَّتِي هِيَ لِلَّهِ طَلْبَةٌ» (المصدر نفسه: ٣٨٦).

ومن كتاب له (ع) إلى معاوية جواباً لتهديده بالهجوم العسكري: «وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ الْأَعْلَفَ الْقَلْبِ الْمُقَارِبِ الْعَقْلِ» (الرضي، ١٣٦٨: ٤٣٠).

اعتبر الإمام (ع) معاوية من الطلقاء ومن أسلموا في فتح مكة (ابن عساکر، ١٤٢١: ١ / ٣٤٩). ودعا رسول الله أن لا يشبع بطنه (البلاذري، ٢٠٠٠: ٤ / ١٢٥). عيّنه عمر عاملاً للأردن (البيهقي، لاتا: ٢ / ٨٦؛ الطبري، ١٣٨٧: ٤ / ٤٤٤). ومعاوية مساوئ لا تعد ولا تحصى، لا نقطة إيجابية في سمات معاوية الظاهرية والأخلاقية والدينية، فكل ما فيه سلبيات ليست إلا.

٨. حول مروان بن الحكم

الخطبة ٧٣؛ قالوا: أُجِدَّ مَرْوَانَ بِنَ الْحَكَمِ أَسِيراً يَوْمَ الْجَمَلِ فَاسْتَشَفَّعَ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ (ع) إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (ع) فَكَلَّمَاهُ فِيهِ فَخَلَّى سَبِيلَهُ فَقَالَ لَهُ يُبَايِعُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ (ع): «أَوْ لَمْ يُبَايِعِي بَعْدَ قَتْلِ عُمَانَ لَا حَاجَةَ لِي فِي بَيْعَتِهِ إِنَّهَا كَفَتْ يَهُودِيَّةً لَوْ بَايَعِي بِكَفِّهِ لَعَدَرَ بِسَبِّهِ أَمَا إِنَّ لَهُ إِسْرَةَ كَلْعَقَةِ الْكَلْبِ أَنْفَهُ وَهُوَ أَبُو الْأَكْبَشِ الْأَرْبَعَةَ وَسَتَلَّقَى الْأُمَّةَ مِنْهُ وَمِنْ وَلَدِهِ يَوْمًا أَحْمَرُ» (الرضي، ١٣٦٨: ٨٦).

كان أبو العاص بن أمية من الذين آذوا الرسول وهو والد مروان، وكان الرسول قد طرده (البلاذري، ٢٠٠٠: ٤ / ١٨٥). لعن الرسول مروان وأباه ونفاهما من المدينة. عندما تولى عثمان الخلافة، مهد الأرضية لعودة مروان وأبيه إلى المدينة، وأصبح من خواصه وتزوج ابنته (ابن عساکر، ١٤٢١: ١ / ٣٤٠). بعدما تولى الإمام علي (ع) أمر

التي لا أصل لها ولا فرع، أنت تكفيني، فوالله ما أعز الله من أنت ناصرته، ولا قام من أنت منهضه، أخرج عن أبعاد الله نواك، ثم أبلغ جهدك، فلا أبقى الله عليك إن أقيمت! (الرضي، ١٣٦٨: ١٣٥).

هو المغيرة بن الأحنس بن شريق بن عمرو بن وهب بن علاج بن أبي سلمة الثقفي حليف بني زهرة و إنما قال له أمير المؤمنين (ع) يا ابن اللعين لأن الأحنس بن شريق كان من أكابر المنافقين ذكره أصحاب الحديث كلهم في المؤلفات قلوبهم الذين أسلموا يوم الفتح بألستهم دون قلوبهم و أعطاه رسول الله (ص) مائة إبل من غنائم حنين يتألف بها قلبه، و ابنه أبو الحكم بن الأحنس قتله أمير المؤمنين (ع) يوم أحد كافرا في الحرب و هو أخو المغيرة هذا و الحقد الذي في قلب المغيرة عليه من هذه الجهة. إنما قال له: يا ابن الأبر لأن من كان عقبة ضالا خبيثا فهو كمن لا عقب له بل من لا عقب له خير منه (ابن أبي الحديد، ١٩٩٥: ٨ / ٣٠١).

١٤. ذم برج بن مسهر الطائي

قال (ع) ردّاً على برج بن مسهر الطائي، وقد قال له: «لا حكم إلا لله» وكان من الخوارج: «استكثرت قبلك الله يا أترم» (الرضي، ١٣٦٨: ٢٥٤).

١٥. ذم عاصم بن زياد

لبس عاصم بن زياد عباءة وتخلّى عن الدنيا فقال له الإمام (ع): «يا عديّ نَفْسِهِ لَقَدْ اسْتَهَامَ بِكَ الْخَبِيثُ... قَالَ وَيَحْكُ إِنِّي لَسْتُ كَأَنْتَ» (المصدر نفسه: ٣٠٦).

تخلّى الإمام عن نصحه لكنه لم يسبه، بل طالبه باتخاذ الاعتدال والوسطية في قضايا الدنيا والآخرة (ابن أبي الحديد، ١٩٩٥: ١٠ / ١٦٠).

١٦. خطابه في زياد بن أبيه

له (ع) رسالة إلى زياد بن أبيه يقول فيها: «وَأَنْتَ عِنْدَهُ مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ وَتَطْمَعُ وَأَنْتَ مُتَمَرِّغٌ فِي التَّعِيمِ تَمَنُّعُهُ الضَّعِيفَ وَالرَّامِلَةَ». (الرضي، ١٣٦٨: ٣٥٦).

كان زياد بن أبيه عاملاً للإمام علي (ع) ومعاوية، ولآه الإمام بلاد اصطخر بأرض فارس بعد صلح الإمام حسن (ع) و رفض مبايعة معاوية بداية الأمر، لكنه بوساطة من المغيرة بن شعبة سار إلى معاوية، ودعا معاوية «زياد بن أبي سفیان» استناداً إلى كلام نقله عن أبيه، كان زياد عنيفاً جداً، وبالرغم من قتاله إلى جانب الإمام علي (ع) في الصفيين والتظاهر بالتشيع، في فترة حكمه على البصرة والكوفة، تراجع عن عقيدته واتخذ العنف والقسوة سبيلاً في التعامل مع الشيعة، فألقى الكثير منهم في السجن وقتل بعضهم، ومنهم حجر بن عددي وأصحابه (الدينوري، ١٩٩٩: ٢١٩).

الأشكال مثل الإرث؛ فإن نصيبها أقل من الرجل، و يتمّ التعويض عن النقص بشكل آخر، أما الشهادة فإن شهادة امرأتين تعادل شهادة رجل في القتل والزنا وهو ملائم لسيكولوجية المرأة (المصدر نفسه).

١٠. خطابه إلى أهل الشام

و يخطب الإمام (ع) عام ٣٧ للهجرة في جنوده تحفيزاً لهم: «وَقَدْ رَأَيْتُ جَوْلَتَكُمْ وَأَنْجِيزَكُمْ عَنْ صُفُوفِكُمْ تَحُوزُكُمْ الْجَفَاءُ الطَّغَامُ وَأَعْرَابُ أَهْلِ الشَّامِ» (الرضي، ١٣٦٨: ١٤٠). فلا تتضمن الخطبة السبّ والشتم.

١١. خطابه في بعض جنوده

و من كلام له (ع) في بعض أيام صفيين: «وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْكُمْ تَكِشُونَ كَيْشِيشَ الضَّبَابِ» (المصدر نفسه: ١٦٤). فلا سب في هذه الخطبة.

١٢. مخاطبة الخوارج

خطب الإمام قبل وقعة النهروان عام ٣٧ رافضاً عقائدهم: «ثُمَّ أَنْتُمْ شِرَارُ النَّاسِ وَمَنْ رَمَى بِهِ الشَّيْطَانُ مَرَامِيَهُ وَضَرَبَ بِهِ تِيَهُهُ» (المصدر نفسه: ١٧٠).

و وصف فئة انضموا إلى الخوارج في خطبة الـ ١٨١: «بُعْدًا لَهُمْ كَمَا بَعْدَتْ تُمُودُ» (المصدر نفسه: ٢٤٤).

أما الخوارج فهم فئة من المسلمين خرجوا على الإمام (ع) في وقعة الصفيين و قضية التحكيم بعد رفعهم القرآن على الرماح وإصرارهم للرجوع إلى القرآن، ثم أثاروا البلبله، فأشعلوا نيران النهروان، وبعد تلقي الهزيمة في النهروان، شكّل من تبقى من هذه الفئة الحجر الأساس لنيار اجتماعي و سياسي و عسكري و عقائدي خاص بهم وفقاً لأرائهم، ولكن طال عليهم الأمد فانقسموا وتفرّقوا (البلاذري، ٢٠٠٠: ٣ / ١١٢-١١١).

بايع الخوارج في العاشر من شوال عبد الله بن وهب أميراً لهم، و اتفقوا فيما بينهم على الخروج من الكوفة و خوض حرب النهروان (الطبري، ١٣٨٧: ٥ / ٧٤-٧٥؛ الجزري، ١٣٨٥: ٣ / ٣٣٦-٣٣٥). فقتلوا في طريقهم الأبرياء، وأنهى الإمام الجدل معهم، وخاض الحرب مرغماً، وقتل في يوم النهروان عام ٣٨ أغلبهم (البلاذري، ٢٠٠٠: ٥ / ١٦٩؛ يعقوبي، لاتا: ٢ / ١٩٣؛ الطبري، ١٣٨٧: ٥ / ٩٢-٨٠؛ تاريخ بغداد، ١ / ٥٢٨).

وصفاتهم أغلبها مذمومة؛ مثل حفظ القرآن وقراءته بلا تفكير، و العبادة الكثيرة الخالية من حقيقة الإيمان، و التظاهر بالزهد، و ضيق النظر، و الجهل بالسنة النبوية وأحكام الدين، و التشكيك في المعتقدات (ابوشباب، ١٤٢٦: ٦١-٥٩).

١٣. لعن مغيرة بن الأحنس

وقعت مشاجرة بينه وبين عثمان، فقال المغيرة بن الأحنس لعثمان: «أنا أكفيك»، فقال أمير المؤمنين (ع) للمغيرة: «يَا بَنَ اللَّعِينِ الْأَبْر، وَالشَّجَرَةَ

الرقم	الخطبة/الرسالة	المخاطب	نوع الذم
٣٣	ر ١٤	النساء	انه تشبيه وليس سبا
٣٤	ر ١٧	معاوية	انه تشبيه وليس سبا
٣٥	ر ٢١	زياد بن أبيه	انه تشبيه وليس سبا
٣٦	ر ٢٨	معاوية	انه تشبيه وليس سبا
٣٧	ر ٣١	النساء	انه تشبيه وليس سبا
٣٨	ر ٣٢	معاوية	انه تشبيه وليس سبا
٣٩	ر ٣٧	معاوية	انه تشبيه وليس سبا
٤٠	ر ٣٩	عمرو العاص	انه تشبيه وليس سبا
٤١	ر ٦٤	معاوية	انه تشبيه وليس سبا
٤٢	خ ٢٣٨	النساء	انه تشبيه وليس سبا

الخاتمة

بعدما خضنا ثنايا الخطب والرسائل والحكم أعلاه، ظهر لنا النتيجة التالية: هناك فرق بين السب واللعن، وقد ذهب علماء اللغة أنهما ليسا مرادفين، لكن للعن مفهوم مختلف، ويعني الابتعاد عن الرحمة، و يظهر هذا الاختلاف في القرآن، أما مفردة اللعن وردت في القرآن ٣٨ مرة، ولعن الله تعالى فئات مثل إبليس وأتباعه لأفكارهم وسلوكهم، فاستحقوا العذاب، وهذا يدل على جواز استخدامه من منظور الله تعالى في القرآن. أما مفردة السب فقد وردت في القرآن مرة واحدة، ونهى الله تعالى الناس عن شتم أعداء الله.

أما في السنة النبوية نرى هناك العشرات من الأحاديث للنبي الأكرم، تتضمن لعن المشركين والمنافقين وأعداء الرسالة وأهل الكتاب والذين عادوا المسلمين كثيرا، هذا الأمر يدل على جواز اللعن والشتم.

فكما رأينا لا يسب الإمام (ع) أي شخص، لكن هناك من لعنهم الله، وهم الأشعث بن قيس وعبد الله بن الكواء والبرج بن مسهر الطائي، ومغيرة بن الأحنس، كما لعن الإمام أهل الكوفة، لأنهم اتهموه بالكذب، كما وجه الكلام للخلفاء وأهل البصرة والكوفة ١١ مرة، وإلى طلحة مرتين، وإلى مصقلة بن هبيرة ومعاوية ٨ مرات، ومروان بن الحكم والنساء ٤ مرات، وأهل الشام وجنوده، وإلى الخوارج مرتين، وإلى علاء بن زياد وزياد بن أبيه وعمرو العاص. ففي كل تلك القضايا لم يسب الإمام شخصا ما، كما لم يلعن أحدا ما، بل عرف الإمام واقعهم الحقيقي للناس، وفضح ممارساتهم. في الواقع أظهر واقع سلوكهم، لأصحابه، كي يعلموا كيفية القيام بالعمل الديني الصحيح.

واجه الإمام (ع) في عهد خلافته سلوكيات منحرفة كثيرة، كان بإمكان كل منها أن تتحول إلى انحراف كبير، واضطر الإمام (ع)، أن يقابل الانحرافات بقوة وصرامة، ففي بعض الأحيان كانت تلك الانحرافات تشكل تيارا مهما، على غرار انحراف الخوارج والشبهات التي ألقاها بعضهم في حرب الجمل والصفين والنهروان، هذا وكان مصدر الانحرافات أشخاص، منهم من ناصر الإمام مثل الأشعث بن قيس وزياد بن أبيه، ومنهم من اتخذ موقف المعارض من الإمام مثل معاوية وعمرو بن العاص. كشف الإمام (ع) بكلامه البليغ وجوههم الحقيقي للناس.

١٧. خطابه في عمرو بن العاص

له (ع) خطاب إلى عمرو العاص عام ٣٩ للهجرة بعد الصفين: « فَإِنَّكَ قَدْ جَعَلْتَ دِينَكَ تَبَعاً لِدُنْيَا امْرِئٍ ظَاهِرٍ غَيْبُهُ مَهْتُوكٌ سِتْرُهُ يَشِينُ الْكَرِيمَ بِمَجْلِسِهِ وَيُسْفَهُ الْحَلِيمَ بِخَلْطِهِ فَاتَّبَعْتَ أَثْرَهُ وَطَلَبْتَ فَضْلَهُ اتَّبَاعَ الْكَلْبِ لِلضَّرْعَامِ يُلَوِّدُ بِمَخَالِبِهِ وَيَنْظُرُ مَا يُلْقَى إِلَيْهِ مِنْ فَضْلِ فَرِيْسَتِهِ فَأَذْهَبَتْ دُنْيَاكَ وَآخِرَتُكَ » (الرضي، ١٣٦٨: ٣٨٨).

كان إسلامه في صفر سنة ثمان قبل الفتح بستة أشهر، فلما قتل عثمان سار إلى معاوية وعاضده، وشهد معه صفين، ومقامه فيها مشهور. بدأ التحكيم بخدعة من عمرو العاص وانتهت بخدعة منه (الجزري، ١٤٠٩: ٤ / ٢٤٤؛ بصرى، ١٤١٠: ٤ / ٢٥٤).

الرسم الإيضاحي للخطب و الرسائل ومضامينها

الرقم	الخطبة/الرسالة	المخاطب	نوع الذم
١	خ ٣	الخلفاء	انه تشبيه وليس سبا
٢	خ ١٣	أهل البصرة	الذم
٣	خ ١٤	أهل البصرة	الذم
٤	خ ١٩	الأشعث	اللعن
٥	خ ٢٧	أهل الكوفة	انه تشبيه وليس سبا
٦	خ ٢٩	أهل الكوفة	انه تشبيه وليس سبا
٧	خ ٣١	طلحة	انه تشبيه وليس سبا
٨	خ ٣٤	أهل الكوفة	انه تشبيه وليس سبا
٩	خ ٣٩	أهل الكوفة	انه تشبيه وليس سبا
١٠	خ ٤٤	مصقلة	انه ذم وليس سبا
١١	خ ٥٧	معاوية	انه تشبيه وليس سبا
١٢	خ ٦٩	أهل الكوفة	انه تشبيه وليس سبا
١٣	خ ٧١	أهل الكوفة	اللعن
١٤	خ ٧٣	مروان الحكم	انه تشبيه وليس سبا
١٥	خ ٨٠	النساء	انه تشبيه وليس سبا
١٦	خ ١٠٧	أهل الشام	انه تشبيه وليس سبا
١٧	خ ١٠٨	أهل الكوفة	انه تشبيه وليس سبا
١٨	خ ١٢١	أهل الكوفة	انه تشبيه وليس سبا
١٩	خ ١٢٣	جنوده	انه تشبيه وليس سبا
٢٠	خ ١٢٧	الخوارج	انه تشبيه وليس سبا
٢١	خ ١٣١	أهل الكوفة	انه تشبيه وليس سبا
٢٢	خ ١٣٥	مغيرة الأحنس	اللعن
٢٣	خ ١٣٧	طلحة	انه تشبيه وليس سبا
٢٤	خ ١٥٦	أهل البصرة	انه تشبيه وليس سبا
٢٥	خ ١٧٥	أهل الكوفة	انه تشبيه وليس سبا
٢٦	خ ١٨٠	أهل الكوفة	انه تشبيه وليس سبا
٢٧	خ ١٨١	الخوارج	انه تشبيه وليس سبا
٢٨	خ ١٨٤	البرج بن مسهر	اللعن
٢٩	خ ١٩٣	ابن الكواء	اللعن
٣٠	خ ٢٠٠	معاوية	انه تشبيه وليس سبا
٣١	خ ٢٠٩	علاء بن زياد	انه تشبيه وليس سبا
٣٢	ر ١٠	معاوية	انه تشبيه وليس سبا

المصادر

- القرآن الكريم.
- ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله (١٩٩٥). شرح نهج البلاغة. تحقيق محمد ابوالفضل ابراهيم. بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن أثير، محمد بن مبارك (١٩٨٨). النهاية في غريب الحديث و الأثر. محقق: محمود محمد طناحي. قم: مؤسسه مطبوعاتي اسماعيليان.
- ابن أعثم الكوفي، ابومحمد احمد (١٤١١). الفتوح. تحقيق علي شيري. بيروت: دارالأضواء. الطبعة الأولى.
- ابن الأثير الجزري، ابو الحسن عزالدين (١٤٠٩). أسد الغابة في معرفة الصحابة. بيروت: دار الفكر.
- ابن خياط، ابو عمرو خليفه بن خياط ليثي عصفري (١٤١٥). تاريخ خليفه بن خياط. تحقيق فواز. بيروت: دار الكتب العلمية. الطبعة الأولى.
- ابن سعد، محمد هاشمي بصري (١٤١٠). الطبقات الكبرى. تحقيق محمد عبد القادر عطا. بيروت: دار الكتب العلمية. الطبعة الأولى.
- ابن عساکر (١٤٢١). تاريخ مدينة دمشق. بيروت: طبع علي شيري.
- ابن قتيبه، عبدالله (٢٠٠٩). المعارف. تحقيق ثروت عكاشه. القاهرة: لانا.
- ابن منظور، محمد بن مكرم (١٩٩٦). لسان
- ابن هشام، عبدالملك (لانا). السيرة النبوية. تحقيق مصطفى السقا و ابراهيم الابياري و عبد الحفيظ شلبي. بيروت: دار المعرفة.
- ابوشباب، احمد عوض (١٤٢٦). الخوارج: تاريخهم، فرقهم، و عقائدهم. بيروت: لانا.
- الاصفهاني، راغب (١٩٩٧). معجم مفردات الفاظ قرآن الكريم. تحقيق: نديم مرعشلي. طهران: انتشارات ناصر خسرو. الطبعة الثانية.
- بسويوني زغلول، اعداد ابو هاجر محمد السعيد بن موسوعه (١٤١٠). اطراف الحديث النبوي الشريف. بيروت: عالم التراث.
- البلاذري، احمد بن يحيى (٢٠٠٠). انساب الاشراف. دمشق: طبع محمود فردوس العظم.
- الجزري، ابن الأثير علي بن محمد (١٣٨٥). الكامل في التاريخ. بيروت: دار صادر.
- جوهرى، اسماعيل بن حماد (١٤١٦). الصحاح، تاج اللغة و صحاح العربية. محقق: احمد عبد الغفور عطار. بيروت: دار العلم للملايين.
- دهخدا، علي أكبر (١٩٤٦). لغت نامه. تحت اشراف محمد معين. انتشارات بانك ملي.
- الديلمي، حسن بن محمد (١٩٨٧). أعلام السنين في صفات المؤمنين. محقق: مؤسسة آل البيت (ع) للاحياء التراث. قم: مؤسسه آل البيت (ع) للاحياء التراث.
- الدينوري، احمد بن داود (١٩٩٩). اخبار الطوال. قم: منشورات الرضي.
- الرضي، الشريف (١٣٨٦). نهج البلاغة، ترجمه: محمد دشتي، قم، هادي مجد، الطبعة الأولى.
- الزركلي، خير الدين (١٩٩٩). الأعلام. بيروت: دار صادر.
- الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم. (١٤١٠). الملل و النحل. تصحيح: احمد فهيم محمد. بيروت: دارالكتب العلمية.
- الشيخ المفيد، محمد بن نعمان (٢٠٠٠). أمالي. قم: جامعه مدرسين حوزه علميه قم.
- الطبرسي، ابوالفضل بن حسن (١٤٠٦). مجمع البيان في تفسير القرآن. تهران: انتشارات ناصر خسرو. الطبعة الثانية.
- الطبري، محمد بن جرير (١٣٨٧). تاريخ الطبري (تاريخ الرسل و الملوك و الامم). مقدمة محمد ابوالفضل ابراهيم. بيروت: دار التراث. الطبعة الثانية.
- الطريحي، فخر الدين بن محمد (١٩٩٦). مجمع البحرين. تحقيق: حسيني اشكوري. تهران: المكتبة المرتضوية.
- قمي، الشيخ الصدوق (١٩٩٣). من لا يحضره الفقيه. قم: جامعه مدرسين حوزه علميه قم.
- الكليني الرازي، محمد بن يعقوب (١٩٩٦). الكافي. بيروت: دار احياء التراث.
- مجد، محمد (٢٠٠٢). روان شناسي زن و مرد، انسان در دو جلوه. ويراسته: مجيد موحدخواه. تهران: مؤسسه فرهنگي انتشاراتي مكيال. الطبعة الثانية.
- المسعودي، علي بن حسين (١٤٠٩). تاريخ المسعودي (مروج الذهب و معادن الجواهر). محقق: يوسف اسعد داغر. قم: مؤسسه دار الهجرة.
- اليعقوبي، احمد بن ابي يعقوب (لانا). تاريخ اليعقوبي. واضح الكاتب العباسي. بيروت: دار صادر.